مع مرض لازار
(الجذام)

الجذام مرض قديم جداً عرفه الناس وخشوه منذ آلاف السنين ويظهر أنه بدأ أول ما بدأ فى أرض مصر ومنها نقله اليهود إلى فلسطين ثم انتشر فى جميع أنحاء العالم فلم تسلم منه منطقة حارة أو باردة ، وقد كان للرومان شأن كبير فى انتشاره بعد أن كثرت فتوحاتهم واتسعت امبراطوريتهم ؛ بل وحتى بعد سقوط روما التى غادرها وقتئذ أناس كثيرون ناقلين الجذام إلى جهات من أوروبا كانت إلى ذلك الوقت قد خلت منه ؛ ويقال كذلك إن لفتوحات العرب شأن كبير فى نقله إلى الأندلس ثم الى فرنسا .

وقد انتشر الجذام فى القرون الوسطى فى كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا لدرجة كبيرة جداً حتى أن ولاة الأمور فيها قرروا عزل المرضى فى منازل كبيرة خصصوها لهم وأطلقوا عليها اسم منازل لازار (Lazar houses) نسبة الى رجل فقير

يدعي لازار كان يتسول فى الطرق وقد انتشرت على جسده دمامل قذرة وقروح ذميمة ظنّ أنها نتيجة اصابته بالجذام . ولم تكن هذه المنازل مستشفيات أو شبه مستشفيات بل كانت معازل تضم أولئك المرضى تحت سقف واحد حيث يعيشون على الفتات التى يلقيها الأغنياء على أعتابها . وقد بلغ من كثرة هذه المنازل أن وصل عددها فى غرب أوروبا الى تسعة عشر الف منزل منها الفان فى فرنسا وحدها ، ومن هذا يستطيع الانسان أن يستنتج مبلغ انتشار المرض فى ذلك الوقت خصوصاً اذا تذكرنا أن هذه المنازل لم تكن تضم جميع المصابين به اذ لم يكن العزل اجبارياً . وكان على من يختار البقاء خارج هذه المنازل أن يحمل جرساً يدقه اذا ما دنا منه شخص سليم كى يحذره من الاقتراب منه .

والواقع أن الناس قد بالغوا فى الخوف من عدوى الجذام حتى أنهم كانوا اذا ماسمعوا جرس المجذوم فروا من جواره وربما تحاشوا الى الأبد المكان الذى حل به . ولذلك فقد اضطهد هؤلاء التعساء وعاشوا عيشة المنبوذين ، بل وقد اعتبرهم الاسرائيليون نجسين ، وبلغت القسوة فى معاملتهم أن كان الآباء

يقتلون أبناءهم المجذومين والأبناء يقتلون آباءهم ، ولعل تلك المعاملة القاسية هي السبب فيما جُبِل عليه مرضى الجذام من عدم الاستقرار في مكان واحد ، فهم كثيرو الحركة دائمو التنقل ماداموا قادرين على التنقل . وقد لاقى ولاة الأمور في جميع أنحاء العالم مشقة كبيرة في عزلهم واقناعهم بالبقاء في المصحات . فقد حدثت مثلا منذ بضعة أعوام في مصحة الجذام بأبي زعبل ثورات صغيرة تمكن المشرفون على هذه المصحة من التغلب عليها تارة باقناع المرضى وتارة باجابة طلباتهم في حد المعقول .

وقد بقي سبب الجذام غير معروف إلى عهد قريب وذهب الناس في تعليله مذاهب شتى نذكر على سبيل المثال ما قاله أحد مشاهير الأطباء الانجليز في أواخر القرن التاسع عشر من أنه ينشأ عن الاكثار من أكل السمك لما لاحظه من انتشاره في بلدة في النرويج تدعى « برجان » يكاد يعيش أهلها على السمك فقط ، وقد كان لهذه النظرية بعض المؤيدين وكثير من الناقدين الذين بنوا نقدهم على دليل منطقي معقول وهو أن المرض كثيرا ما أصاب أناسا لم يأكلوا السمك

طول حياتهم أو أكلوه بكميات لا تذكر كما سلم منه أناس يكاد يكون السمك طعامهم الوحيد .

بعد بضع سنوات من نشر هذه النظرية أعلن طبيب نرويجي يدعى ينسن (Jensen) أنه اكتشف الجرثومة المسببة لهذا المرض ووصفها بأنها جرثومة تشبه جرثومة السل إلى حد كبير وتختلف عنها في أنها لا تنمو على الأوساط الصناعية المعروفة . والواقع أنه لم يفلح أحد إلى الآن في تحضير مزارع غزيرة منها ، وتوجد هذه الجرثومة بعدد كبير في الجلد وفي الغشاء المخاطي للأنف كما توجد في الأعصاب إن كان المرض من النوع العصبي . ومن الغريب أنه حتى بعد اكتشاف الجرثومة استمرت نظرية السمك وعلاقته بالمرض قائمة اذ زعم بعض مؤيدي هذه النظرية أنه هو الذي ينقل الجرثومة الى الانسان ، وهناك أنواع مختلفة من الجذام منها ما يصيب الجلد فيحدث به وبالوجه على الأخص تشويهاً مريعاً (وقد أجمعت الكتب الطبية على تشبيه وجه المجذوم بوجه الأسد لما يصيبه من التدرن والتشويه) ومنها ما يصيب الأعصاب فيسلب المريض حاستي الألم والحرارة بل وقد يفقد جزءا من

اطرافه دون أن يشعر . ومنها ما يصيب الجلد والأعصاب مما وهو أكثر الأنواع انتشاراً وأشدها وطأة ولا يقتصر التشويه فيه على الوجه بل يشمل الأطراف التى كما ذكرنا قد تُفقد أجزاء كبيرة منها .

ومدة الحضانة فى جميع الأحوال طويلة جداً قد تمتد الى بضع سنوات ، ويقال إن معظم المصابين بهذا المرض قد عُرِّضوا للعدوى قبل سن العشرين ، وهناك حالات امتدت مدة الحضانة فيها الى أربعين سنة ولو أن هنـاك أيضا حالات لم تزد مدة الحضانة فيها عن بضعة أسابيع ، أما طريقة العدوى فلا زالت غير معروفة على وجه التحقيق وأكبر الظن انها تحدث باللمس أو الهواء ويظهر انه لا بد من التعرض للعدوى عن كثب ولمدة طويلة قبل أن يصاب الشخص بالمرض .

وسنقص على القارىء فى هـــذه المناسبة قصة « الأب دميان » الذى ذهب الى هنولولو عام ١٨٦٣ ولم يبلغ الثامنة عشر من عمره وهناك سمع ببؤس مرضى الجذام فى ملاكاى وبما كانوا يلاقونه من القسوة والاضطهاد ، فتوسل الى رؤسائه أن يوفدوه اليها ليواسى المرضى ويعنى بهم . وهناك من الناس

من لو كُلف بعمل مثل هذا لبذل قصارى جهده للافلات منه .
أجيب الأب دميان الى طلبه بعد الحاح شديد اذ كانوا يخشون عليه العدوى وهو لا زال فى عنفوان الشباب ولا يعرف من شئون الطب الكثير أو القليل . مكث فى ملكاى عدة سنوات لم يظهر عليه عرض من أعراض الجذام ، الا أنه حدث ذات يوم بعد اثنى عشر سنة من وصوله أن سُكب على قدمه مصادفة ماء ساخن فى درجة الغليان ففزع أيما فزع ، لا من الألم بل لأنه لم يكن هناك ألم ، فهو لم يشعر بحرارة الماء مما يدل على أن أعصاب الحس قد أصيبت ، وفى تلك اللحظة فقط اكتشف أنه أصيب بالجذام وقد لازمه المرض أربع سنوات ثم مات وهو فى مقتبل العمر شهيد المروءة والانسانية .

وقد حدث يوما بينما طالب طب فى باريس يأخذ عينة من أحد مرضى الجذام أن غزته إبرة ملوثة فظهرت عليه أعراض الجذام بعد ثمان سنوات من هذا الحادث . كما حدث أيضا أن حُقن أحد المجرمين بافراز مأخوذ من أحد المرضى فظهرت عليه أعراض المرض بعد ثلاث سنوات .

ومن شهداء الانسانية أيضاً أميرة تدعى اليزابت اشتهرت

بعطفها على المرضى والفقراء . حدث ان لجأ اليها مريض بالجذام فآوته فى منزلها فى الوقت الذى كان فيه الناس يفرون من مرضى الجذام اذاما رأوهم عن بعد أو بمجرد سماع أجراسهم التى كان عليهم أن يدقوها ليحذروهم من أنفسهم، ولم تكتف بأن آوته فى منزلها بل سمحت له أن ينام على سريرها وأن يشاركها طعامها فلما ماتت هذه الأميرة رفعها الناس إلى مرتبة القديسات ولا زالت معروفة الى الآن باسم « سان اليزابت »

ومن أبطال العلم ذلك الطبيب اليونانى الذى كان يمارس الطب فى مصر وحقن نفسه بدم مريض بالجذام ليعرف ان كانت الجرثومة موجودة بالدم .

ولقد كتب أحد المثقفين الأمريكيين ممن أصيبوا بالجذام كتابا أسماه « الذين يسيرون وحدهم » (who walk alone) سرد فيه كيف أصيب أثناء الحرب الأمريكية الأسبانية بمرض لم يستطع تشخيصه كثير من الأطباء ؛ الى أن فحصه طبيب ممن لهم خبرة بالجذام فشخص المرض وهو فى أول أدواره ولم تزد أعراضه وقتئذ عن فقد الحس فى جزء صغير من جلده . سرد فى هذا الكتاب كيف تطور المرض معه ووصف

حيـاة مرضى الجذام الذين عاشرهم فى الفليبين — وكان قد ذهب اليهـا طوعا دون أن يعرف أحـد من أهله مقره — وكتب عن حالة هؤلاء المرضى النفسية وانتقد الطريقة التى عوملوا بها وذكر كيف تزعم فريقا كبيرا منهم فأكسبهم الثقة فى أنفسهم بإيجاد عمل لكل فرد منهم مما اشعرهم بأنهم يكتسبون عيشهم بعرق جبينهم وأفلح فى انشاء مستعمرة منهم تكاد تحكم نفسها بنفسها على غرار ما يسمونه بالحكم الذاتى . وقد توفى هـذا الرجل قبل أن ينشر مذكراته فقام بنشرها صديق له يدعى «پرى برجس»

بقيت لنا كلمة عن علاج هذا المرض العضال :

زعموا أن الملك بلادود الذى حكم انجلترا فى القرن التاسع قبل الميلاد أصيب بالجذام فترك العرش وهام على وجهه فى الغابات يرعى الخنازير التى انتقلت اليها العدوى منه (وهو زعم بعيد عن الحقيقة كل البعد اذ من المسلم به أنه لا هذه الحيوانات ولا غيرها يصاب بهذا المرض ، ولو كان هنـــاك حيوان يصاب بالجذام فهو الفأر فقط ويصاب بنوع خاص به) وقيل ان هذه الخنازير المريضة نزلت ذات يوم فى بركة قذرة

ثم خرجت منها سليمة معافة ، فغطس فيها الملك بدوره وشفى من مرضه ثم عاد الى ملكه وأمر ببنـــاء محطة للاستشفاء بالقرب من هذه البركة وأطلق على تلك الجهة اسم « باث » (Bath) أي الحمام ولا زالت معروفة فى انجلترا بهذا الاسم يؤمها الى الآن عدد كبير من المرضى بمختلف الأمراض الا الجذام الذى يظهر أنهـا فقدت شهرتها فى شفائه ، ولو أنه لا زال بها الى الآن تمثال الملك بلادود الذى مرض بالجذام وشفى منه بفعل ماء هذه البركة السحرى .

ويقال أيضاً إنه حدث منذ مئات السنين أن أصيب « راما» ملك بنارس من أعمال الهند بالجذام فاضطر الى ترك بلاده ولجأ الى الغابات يرمرم من نبات الأرض ويقتات بأعشابها . وتصادف ان أكل يوماً من ثمر نبات يدعى « كالاو »(Kalaw) ثم أعاد الكرة مراراً رغم مرارة هذا الثمر فما لبث أن شفى من مرضه ، وبينما هو عائد الى عاصمة ملكه قابلته أميرة هندية كانت هى أيضاً قد أصيبت بالجذام فطردت بدورها ولجأت الى الغابات فعاد بها الملك حيث شجر « الكالاو » منتشر وجعلها تأكل من ثمره حتى شفيت . وعاد الاثنان وقد شفيا تماماً ولم يبق

على جسديهما أثر للجذام . فانتشر نبأ هذا الثمر وعم استعماله فى الهند كعلاج ناجع لهذا المرض ، وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح فانه من المحقق أن الهنود منذ مئات السنين استعملوا الزيت المستخرج من بذور هذا الثمر فى علاج الجذام ويعرف هذا الزيت باسم زيت الشولموجرا . وقد أُخذ هذا العلاج عنهم فى جميع أنحاء العالم تقريباً وهو لا يزال مستعملا الى يومنا هذا مع تعديل بسيط أُدخل عليه ، فبدل ان كان يعطى بالفم صار يحقن . وحضرت منه مركبات مع الصوديوم وأخرى مع الكحول والنوع الأخير هو الآن أكثر الأنواع استعمالا .

لا شك أن هذه المركبات تخفف كثيراً من حدة المرض ولكنها قلما تشفيه تماما ، والواقع أنه يندر أن يشفى مريض الجذام شفاء تاما . وربما كان هذا العامل — مصحوبا ببطء المرض المتناهي — من العوامل التى جعلت الناس يخشون هذا المرض أكثر مما يخشون أى مرض آخر . وعدد الوفيات من هذا المرض ليس كبيرا ومدته طويلة ، وقد يموت مريض الجذام من السل أو من أى مرض آخر قبل أن يموت من الجذام .

obeikandl.com